

تشظي الفضاء في قصص "ألف ليلة و ليلة" "مقاربة سيميوتقافية"

Fragmentation de l'espace dans les récits de "Mille et une nuits"

"Approche symo-culturelle"

"

د/آمال منصور / أستاذ محاضر (أ)

جامعة بسكرة

a.mansour@univ-biskra.dz

– ملخص المداخلة باللغة العربية:

تعالج هذه المداخلة التشكيل الفضائي في كتاب "ألف

ليلة و ليلة"، باعتبار أنّ نصوص الليالي نصوص عالمية تقدم

لقارئها ثقافة متنوعة و مختلفة.

تكشف هذه الدراسة الأنساق الثقافية الثاوية وراء

المتن، حيث يحيل الفضاء فيها إلى ثنائية مهمة هي:

مركز/هامش.

– ملخص المداخلة باللغة الفرنسية:

Peut-être que la navigation dans le monde des Mille et Une Nuits est une aventure admirable qui porte ses lecteurs aux temps passés. Ce sont des textes retenus par des cultures diverses qui sont difficiles à être jugés ou d'être classifiés. Mais ce que nous en sommes sûrs et confiants est que c'est un monde fertile pour lire et pour interpréter où la diversité des personnages traversent les espaces avec ses divers formes et que le tous voyagent à travers le temps à un endroit très lointain.

Cette intervention essaye de plonger dans le monde des Mille et Une Nuits et de valider la nature et la réalité de l'espace en elle et traverse une distance importante entre la réalité et l'illusion.

– الكلمات المفتاح:

(الفضاء المفتوح، الفضاء المغلق، الفضاء المكاني، الفضاء الدلالي، الفضاء النصي، النسق الثقافي)

تمهيد:

قال مارسيل: "إنّ الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنّ الفضاء نفسه"

لعلّ الإبحار في عوالم "ألف ليلة و ليلة" مغامرة رائعة، تنقل قارئها إلى أزمنة غابرة، فنصوصها نصوص تحكمها ثقافة متنوعة يصعب الحكم عليها، وكذا تصنيفها، لكن ما نحن على ثقة منه أنّها عالم خصب للقراءة والتأويل، حيث تتعدد الشخصيات، و تشظي الفضاءات بشتى أشكالها، و ترحل جميعا عبر الزمن إلى مكان بعيد جدا.

تقطع "ألف ليلة و ليلة" بقارئها مسافة زمنية هائلة، و تقدم له حشدا من المعارف المتنوعة، منها ما هو بسيط ينزل إلى مستوى العامة، و منها ما هو على درجة مهمة من الذكاء و الحكمة، مما يجعلنا نؤيد الرأي القائل بأنّ نصوصها إنتاج جماعي و لا يمكن أن تكون إلا كذلك.

لعلّنا في هذه الدراسة لن نخوض في مسألة إشكالية: أصل "ألف ليلة و ليلة"؟ و إلى أي حضارة تنتمي؟ و يكفينا في هذه الدراسة أن نعتقد أنّ الخطاب الذي بين أيدينا بناء يتأسس على أنساق ثقافية تحكم الذهنية الشرقية و تترجم كواليس المسكوت عنه؟

تحاول هذه المداخلة تقصي أشكال الفضاء في عوالم "ألف ليلة و ليلة"، و تبرهن على تنوعه، حيث تقطع مسافة مهمة بين الوهم و الحقيقة.

1 في ماهية الفضاء: الحاضر الهارب في قصص الليالي:

إنّ "ألف ليلة و ليلة" نسيج من الروعة، تأخذك أقاصيصه إلى عوالم من السحر و المتعة، ترفرف فيه أجنحة الخيال على بساط الريح، و المارد و القمقم و الشعوذة و الجن و العفريت¹.

فالرواية في نصوص "ألف ليلة و ليلة" هي أنثى (شهرزاد)، حيث تنجح في تحويل سلطة الحكمي من الذكورة إلى الأنوثة، أي من المركز إلى الهامش، كما تمارس الحكمي باعتباره فعل خلاص، فهي تفكر في هذه الحيلة لإنقاذ بنات جنسها من الموت، و تغامر بحياتها من أجل غيرها، قالت لوالدها الوزير: « بالله يا أبت زوجني هذا الملك، فإمّا أن أعيش و إمّا أن أكون فداء لبنات المدينة و سببا لخلاصهن من بين يديه² »

إنّ "شهرزاد" بالحكي لا تنقذ بنات جنسها فقط، بل تنقذ الملك أيضا من مسلسل طويل لا منتهي من القتل، و تداوي جرحه النازف جراء صدمة خيانة.

تنجح "شهرزاد" في الاستحواذ على اهتمام الملك، يربط جميع الحكايات ببعضها، و تتفنن في أساليب الحكمي، و تضمن قصصها عددا هائلا من المعارف الطبية و الشعر و التاريخ و أقوال الحكماء، حيث تستثمر خبرتها الطويلة في القراءة.

تعلو قصص "ألف ليلة و ليلة" عن كونها مجرد قصص للتسلية فهي لا تقل عن أي عمل مهم يقدم خبرة معرفية لقارئه. لكن هذه المعرفة التي تسوقها هذه القصص تحيل دائما إلى المجتمعات الشرقية، بكل تقاليدها و معتقداتها و أحاسيسها و مشاعرها و سلوكاتها، فالشرق هنا هو الفضاء الفسيح و مسرح جميع أحداثها، فالفضاء فيها يمتلك هوية و ذاكرة، حيث يصبح منظومة ثقافية متكاملة.

فإذا أردنا البحث عن كلمة "فضا" في المعجم العربي ألفينا معناها يتفق في (لسان العرب) و (مختار الصحاح) في فكرة الاتساع والخلو³. كما لا يختلف عنه في المعجم الغربي، فكلمة (ESPACE) تعني: étendue indéfinie qui contient et entoure tous les objets⁴ و أيضا (vacuité)⁴.

و هنا نلاحظ اتفاق معناها في اللغتين العربية و الفرنسية حيث تتصل جميعا في فكرة الاتساع مكانيا. و الحقيقة أن هذا الطرح اللغوي يوائم طرحنا النقدي الذي سيتخذ من مصطلح الفضاء، مصطلحا نقديا يتسع ليشمل الفضاء المكاني و النصي و الدلالي، و هذا يختلف عما تبناه د"عبد الملك مرتاض" بأن استبدل مصطلح (الفضاء) بمصطلح (الحيز) معللا « بأنه يشير إلى دلالات التواء و الوزن و الثقل و الحجم و الشكل »⁵.

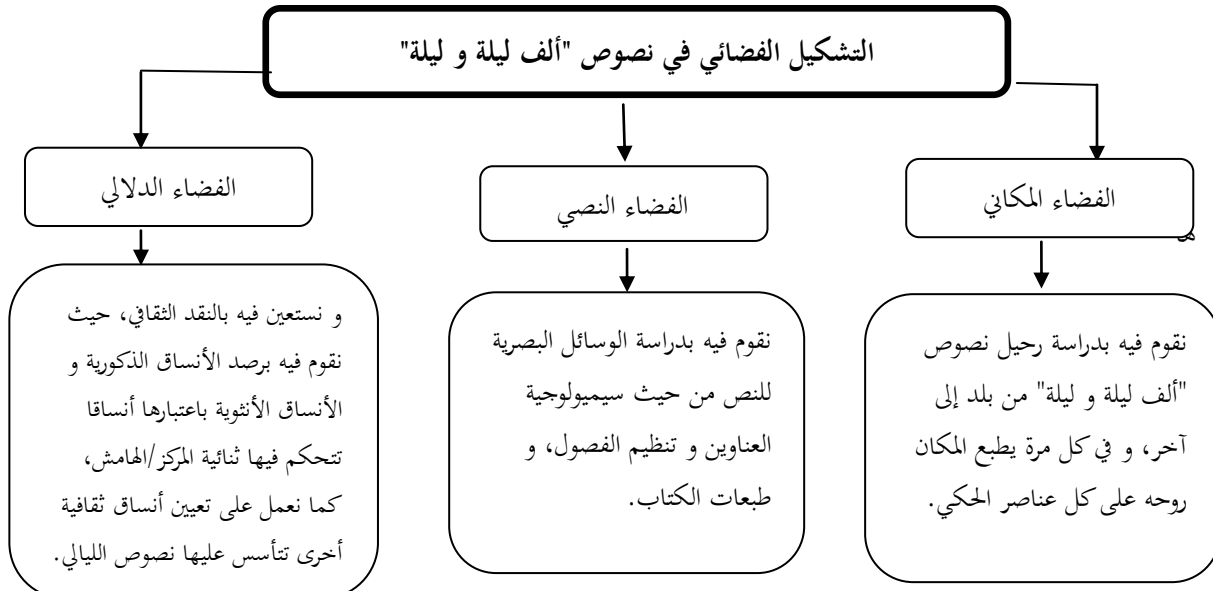
إن مصطلح الفضاء -في اعتقادنا- يصدق على الطرح السردى، و هو الأنسب، و مصطلح "المكان" أيضا في نظرنا مصطلح ضيق، و لا يتسع إلى الأشكال الواردة في العمل السردى، فالمكان جزء من الفضاء، و هذا جلي من خلال التسمية.

2 - التشكيل الفضائي في كتاب "ألف ليلة و ليلة" و انشطاره:

رغم أن عمل "ألف ليلة و ليلة" نص مركزي في الثقافة العربية، إلا أن الموقف العام إزاءها يبقى محل سؤال، فقد ظلت الثقافة العربية تعمل على تجنب النقاش في محتوى نصوصها، أو معالجتها علميا، فقد ورد في كتاب: نزهاء زاغر الموسوم ب: التداخل السردى في المتن الحكائي " أنه « منذ إنشاء قسم اللغة العربية كلية آداب جامعة القاهرة، أي منذ حوالي أكثر من ستين عاما لم تقدم في هذا العمل إلا رسالة ماجستير واحدة »⁶

كما أن جل الكتاب و الأدباء الذين تأثروا بهذا النص ينكرون ذلك، و جزء منهم يعترف بأنه قرأ كتاب "ألف ليلة و ليلة" سرا. و تعزو نزهاء زاغر السبب وراء التبرم من خوض غمار هذا العمل، و هو ما رسخ بالذاكرة من أن "ألف ليلة و ليلة" هو عمل مشبوه، مثير لمشاعر جنسية مريبة⁷.

لكن -في نظرنا- أن هذا السبب ليس الوحيد وراء تهميشها، فقد تنازعتها فضاءات عديدة، جعلت منها نصا هجيناً، منها ما يتعلق المكاني (الجغرافي)، و آخر بالنص ذاته، و فضاء آخر يتعلق بتأويل محتواها الدلالي، لذلك جاء الفضاء متنوعا و ثريا ثراء الثقافة الشرقية، و يمكننا أن نمثل هذا التشكيل في المخطط الآتي: (مخطط رقم 01)



2-1- الفضاء المكاني (الجغرافي):

طافت الليالي البقاع، فأنت تشكيلة تعكس روح الشرق، ففيها ما يحيل إلى الإرث الفارسي، و منها ما يعيدنا للهند، و جزء مهم يحيل للحضارة العربية.

بدءا تحيلنا أسماء الشخصيات الأساسية في هذا الكتاب : شهریار، شهرزاد، دنيازاد، إلى بلاد فارس، فاختيار هذه الأسماء من قبل مؤلفها أو مؤلفيها، لا يتناقض أبدا مع المحتوى المعنوي لليالي، فلطالما كانت بلاد فارس فضاء مشتركا مع بلاد العرب، يتقاسمان التاريخ المشترك و كثيرا من المعتقدات و الأعراف.

لكن "شهرزاد" أثناء سردها للحكايات كانت تنتقل من مكان إلى آخر، بما تقتضيه القصة، ففي حكاية "قمر الزمان" تنتقل من بغداد إلى الشام ثم القاهرة في طرف البصر.

و ترحل شهرزاد إلى الصين و الهند في حكايات أخرى ، مثلما حدث في الليلة الحادية و الثمانون بعد المائة تنقل أحداث قصة ابنة الملك "بدور" إلى الصين ، لكن تبقي على الذهنية الشرقية التي تحكم مجرى الأحداث، فيطغى على الفضاء البعد العجائبي تقول: « كان ذلك الملك يحب ابنته هذه التي وصفها لك حبا شديدا، ومن محبته لها(..) بنى لها بذلك سبعة قصور، كل قصر من جنس مخصوص، القصر الأول من البلور، و القصر الثاني من الرخام، و القصر الثالث من الحديد الصيني، و القصر الرابع من الخبز و الفصوص، و القصر الخامس من الفضة، و القصر السادس من الذهب، و القصر السابع من الجوهر⁸ » إنّ هذا الوصف يخدم مسرح الأحداث و يوجهها لخدمة المحور الأساسي في النص، و الوصف هو أسلوب عرض الفضاء، و قد كانت نظرة النقاد التقليديين (بلازك و جماعته) إلى الوصف نظرة قاصرة⁹ ، فوظيفته في نظريتهم تزيينية فقط¹⁰.

2-2- الفضاء النصي:

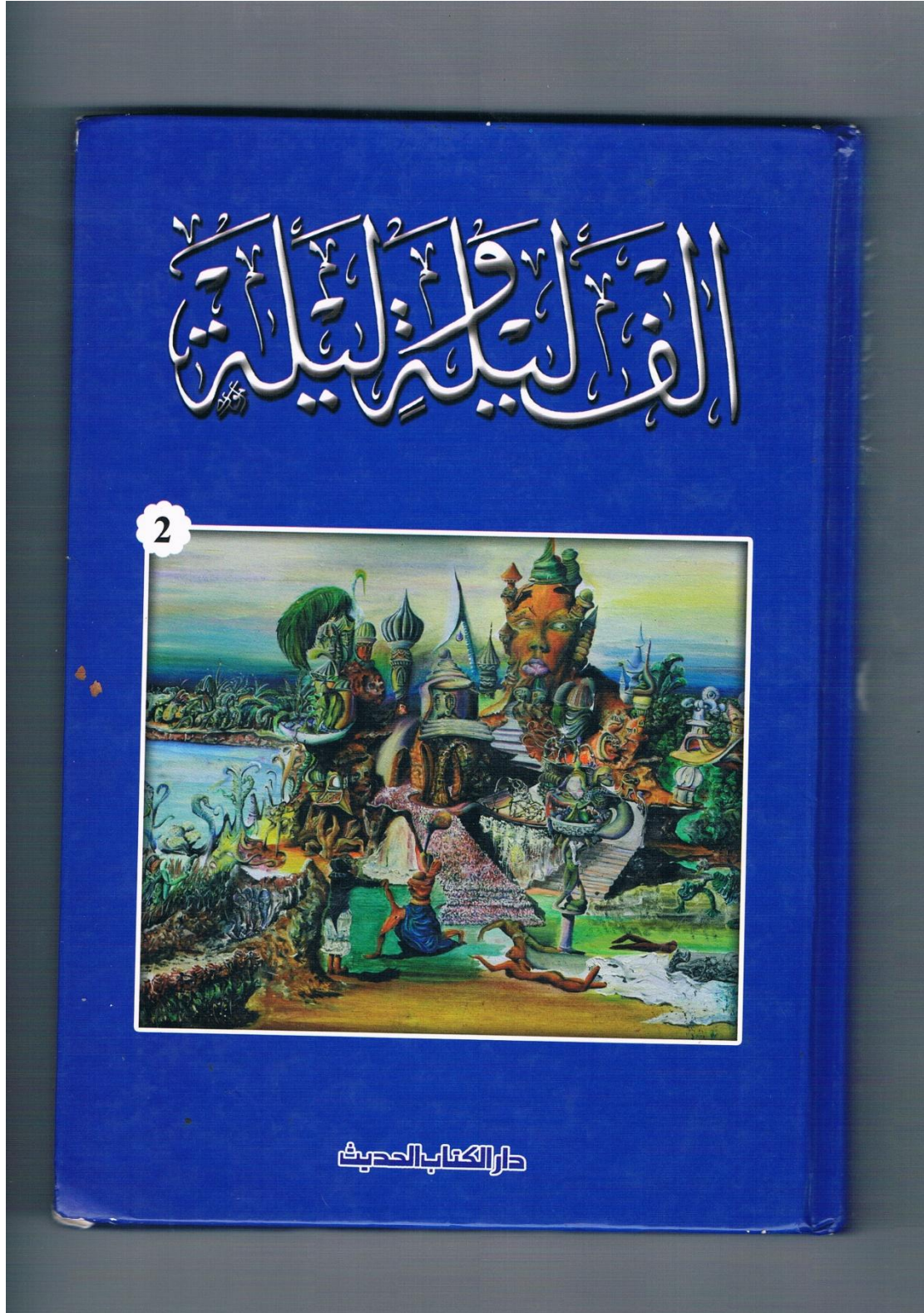
إن كتاب "ألف ليلة و ليلة" عمل عالمي بامتياز، فرغم تصنيفه في خانة الحكى الشعبي، إلا أنه عمل لم ينل حظه الذي يستحقه من القراءة و التأويل.

فقد عرّف الدارسون عن تناوله كعمل مكتمل سرديا يقدم صورة صادقة عن فكر المجتمعات الشرقية و القيم التي تحكمها و الأنساق الثقافية التي تسيطر على أفق تفكيرها.

و النص كل مكتمل بجميع عناصره الخارجية و الداخلية، فكل العتبات التي تؤسسه لها علاقة بما يؤسس له من قيم، و "ألف ليلة و ليلة" كتاب طبع طبعات متعددة منذ ظهوره، فقد « طاف الدنيا بأرجائها(..) و ترجم إلى معظم لغات الدنيا، حيث طبع بالعربية لأول مرة في ألمانيا سنة 1825 بعناية المستشرق "هانجت"، ثم طبع طبعات عديدة أهمها طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة 1960¹¹ »

انهر الغرب بعالم "ألف ليلة و ليلة" لذلك ترجمت مرات عدة، و طبعت طبعات عديدة، و تأثر بمحتواها كتاب غرب كثر، منهم "جوته" الذي كان يحفظ قصصها عن ظهر قلب، و يستخدم رموزها في كتاباته و رسائله. و قد صاحبت أغلب الترجمات الغربية رسومات مساعدة، تعكس محتوى النصوص مثلما هو وارد في كتاب "فيليب بولانجيه" ترجمة: محمد دبس عام 2003.

أما الأجزاء الأربعة المعتمدة في هذه الدراسة فهي لا تحتوي على أي صور داخل العمل عدا واجهة الكتاب التي تتفق في جميع الأجزاء (صورة رقم 01):



تحيل هذه الصورة إلى العالم العجائبي الذي تصوره القصص، فالقصر في أعلى قمة الجبل له ملامح بشرية، عينيْن و أنف و فم، تحيط به قصور أخرى تشبهه لكنها أقل منه في الحجم، و على الضفة الأخرى نهر واسع يجيل إلى عوالم السندباد صاحب المغامرات الخارقة، كما أن هناك أجساما تشبه في ملامحها العامة البشر لكنها غريبة. و هناك شجر كثيف لكنه غريب غرابة القصص التي نقرأها في الليالي.

لكن ما يريح القارئ أثناء الاطلاع على قصص "ألف ليلة و ليلة" هو الألوان الهادئة التي اتخذها الناشر مساحة للقراءة، ففي الجزء (1) اختار اللون الوردي الهادئ، و في الجزء (2) اختار اللون الأزرق الفاتح، أما في الجزء (3) فقد اختار اللون البرتقالي الفاتح، و في الجزء الأخير كان اللون الأخضر الفاتح.

هذه الألوان تعد فضاء يعزز العالم الحالم الذي تقصّه القصص، إنّه عالم ينقلنا من عالم الواقع إلى عالم اللاواقع، حيث يتحقق كل شيء، فلا شيء يعد مستحيلا.

كما يأتي ترتيب الفصول بعدد الليالي التي قصتها "شهرزاد" في كنف زوجها الملك حتّى أنجبت له ثلاثة صبيان خلال مدة قدرناها ب: سنتين و 9 أشهر و يوم.

2-3- الفضاء الدلالي:

إذا كانت الليالي قد صنفت ضمن الأدب الشعبي، ربّما للغتها أو أخيلتها القريبة من فكر العامة، إلّا أنّها في الحقيقة تخفي بين طياتها أنساقا مضمرة ترسخ الثقافة السائدة.

لذلك يظهر "الفضاء الدلالي" مدججا بقيم عديدة، أحيانا متوافقة و أحيانا متناقضة فيما بينها تعزز فكرة أن المجتمعات الشرقية لا زالت تعيش حالة من عدم مصالحة الذات و مواجهة حقائق النفس.

فأغلب الصور ترسم فضاء يحكمه « منطق الاختلال المرجعي، إنّها ليست صورا للكمال أو الحقيقة المثالية، و إنّما هي صور للنقص و التشوه »¹²

حيث تؤسس قصص الليالي نوعين من الأنساق:

(أ) - أنساق مركزية

(ب) - أنساق هامشية

فالعالم بطبيعته ينقسم إلى مركز و هامش، ففيه يسعى المركز أن يحافظ على مركزيته، و الهامش يحاول جاهدا أن يغير من وضعه.

تبدأ قصص الليالي وفقا لهذه القاعدة الذهبية، حيث يمثل الملك (المركز) فهو يحتل فضاء السلطة/القوة، الذي يعيش قصة خيانة و تتسبب هذه التجربة بقهر الهامش مهما كان نوعه مذنباً أو بريئاً. و بذلك يفر سكان القرية خارج الدولة خوفا من عقاب الملك و غضبه.

لكن شهرزاد ترفض هذه القاعدة و تسعى إلى تحقيق توازن القوى، حيث تثق في كفاءتها و تبدأ في التفكير في حرق النظام الأبوي.

إن تملك "شهرزاد" لسلطة الحكمي، يمنحها أملا في تغيير السائد، حيث تسيطر على انتباه الملك، و تملك قلبه ثم عقله شيئا فشيئا.

صحيح أن "شهرزاد" أصبحت مصدرا للمعرفة بالنسبة للملك، لكنها بقيت رهينة الأنساق الثاوية في المعتقد الشعبي، فكل الحكايات التي ترويها تسير في ظل هذا الإطار، حيث تسيطر العفاريات و الجنيات على أفعال الأبطال مثلما يحدث بين "بدور" و "قمر الزمان"، فتنجح الجنية "ميمونة" في السيطرة على أحاسيس "قمر الزمان" و تكبحه عن الوقوع في المنكرات، بينما يحدث العكس مع العفريت "دهنش" الذي يسيطر على "بدور" التي تقع في شباك الهوى و رغبات النفس. كما تسيطر الأنماط الهامشية للحكي على الكتاب منها:

- الحكي العجائبي

- الحكي الأسطوري

- الحكي الهزلي.

فالعجائبية عنصر مهم في التحكم في مسار الحكي، حيث تغلب قوى العفاريات و الأشباح على الشخص و أفعالهم ليست حرة بل هي مسيرة.

كما أن الهزل و الحكي المرح عنصر خصب في كتاب الليالي مثل : حكاية الخياط و الأحذب و اليهودي و النصراني، و حكاية الشاب و المزين البغدادي، و حكاية الشاب مقطوع اليد.

» و تسعى الصور الحكائية المرحية في ألف ليلة و ليلة إلى نقد القيم الثقافية و الاجتماعية لجمهور الشعب، عبر المحاكاة الساخرة، و التلفيق بين الأضداد¹³»

و الحقيقة أن جميع أشكال الحكي الواردة في الليالي تحاول نقد طبقات المجتمع من أجل الاهتمام إلى قيمة ترفع من جوهر الأفراد ، حتى حكايات الشطار مثل : حكاية دليلة المحتالة و علي الزئبق... تندرج في هذا المجال.

خلاصة:

تكتب "ألف ليلة و ليلة" تاريخها الخاص من خلال أنماط عديدة و متنوعة من الحكي، و تستعين بوسائل سردية توحى بقدر مهم من الذكاء و الفطنة، و تؤسس لفضاءات متحولة تتكاتف جميعا لتصنع شكلا سرديا متفردا لا يتكرر مرة أخرى عبر العصور.

وعلى الرغم من وجود "أنثى" تدير مسار الأحداث إلا أنها تمكنت في النهاية من جعل العمل يرقى إلى العالمية.

هوامش:

- ¹ - ألف ليلة و ليلة، (مقدمة الكتاب كتبها د/حسن جعفر نور الدين)، ج 1، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2011، ص: 06.
- ² - المصدر نفسه، ج 1، ص: 11.
- ³ - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، 1997، مادة : فضا، ص: 335.
- ⁴ - في الموقع :
- ⁵ - عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص: 141، 142.
- ⁶ - نزيهة زاغر، التداخل السرد في المتن الحكائي (دراسة إجرائية مقارنة بين ألف ليلة و ليلة و رواية في البحث عن الزمن الضائع)، منشورات مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها، بسكرة، ط 1، 2010، ص : 22.
- ⁷ - المرجع نفسه، ص: 22.
- ⁸ - المصدر نفسه، ج 2، ص: 185.
- ⁹ - حمد العزي صغير، الفضاء و تشكلاته السردية في الرواية العربية الحديثة، في الموقع الآتي:
https://web.facebook.com/alamedbag/posts/425638900781445?_rdc=1&_rdp=1
- ¹⁰ - الموقع نفسه على الرابط نفسه.
- ¹¹ - يسري عبد الغني عبد الله، ألف ليلة و ليلة: عندما يمثل الأدب الشعبي سمات مجتمعه، في الموقع:
<http://bahrainanthropology.blogspot.com/2016/02/blog-post.html>
- ¹² - شرف الدين ماجدولين، بيان شهرزاد (التشكلات النوعية لصور الليالي)، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، ط 1، 2010، ص: 303.
- ¹³ - المرجع نفسه، ص، 369.